إستراتيجية الإقناع في "الرسالة الهزلية" لابن زيدون

محمد الرقيبات●

الملخص:

يسعى هذا البحث إلى دراسة إحدى إستراتيجيات الخطاب في الرسالة الهزلية لابن زيدون،وهي إستراتيجية الإقناع،التي كانت من أكثر الإستراتيجيات الخطابية حضوراً في الرسالة الهزلية،حيث قصد كاتبها إلى توظيف الآليات والوسائل والتقنيات المختلفة، التي تضمن له الوصول إلى درجة كبيرة من القبول لدى المتلقي ومن ثم إقناعه.

وقد وجدت أن إستراتيجية الإقناع قد تمثلت في جانبين ظاهرين في الرسالة الهزلية،وهما: السخرية،وروافد النص،فحاولت تتبع هذين الجانبين،والكشف عن كيفية تمثُّل الإقناع من خلالهما،بالإضافة إلى بعض الإشارات الفنية التي تخدم الموضوع، وتنسجم معه.

الكلمات المفتاحية: إستراتيجية الإقناع، الرسالة الهزلية، ابن زيدون.

Abstract

This study aims to investigate one of the discourse strategies in Ibn Zaidun's Farcical Epistle which is the persuasion strategy. This Strategy is so distinctive strategy in the Farcical Epistle in which the author tried to employ various techniques, and means that guaranteed him to reach a high degree of acceptance at the level of the receiver and then persuade him/ her. The findings reveals that the persuasion strategy appears in two distinct aspects: the irony and the text's sources. It tries to follow these two sides and to explore the ways they represented persuasion, in addition to some technical signs that serve the topic of study Farcical Epistle and identify with it.

Key words: persuasion strategy, Farcical Epistle, Ibn Zaidun

تعد الرسالة الهزلية لابن زيدون، من الآثار الأدبية الخالدة في الأدب العربي، لما اجتمع لها من صروف الإبداع في وجوه عديدة، من أساليب وعواطف وصياغة محكمة، ولما دلت عليه من ثقافة واسعة لكاتبها، وغير ذلك من ميزات الرسالة التي لا تخفى على قارئها،حتى قال عنها

● أستاذ مساعد، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، جامعة جرش، الأردن.

ابن نباتة،حين طُلب منه شرحها،وإيضاح براهينها: "ما أنا بصعود هذا الصرح، وولوج هذا السرح، ومعارضة ذلك البز، ولست من ذلك الطرح..."[1].

وإذا أردنا اختزال فن الرسائل بنوعين: السياسية والاجتماعية، فيمكننا اعتبار الرسالة الهزلية من نوع الرسائل الاجتماعية التي "تصور عواطف الأفراد ومشاعرهم، وتعكس جوانب حياتهم الاجتماعية، وتعبر عن علاقات الأفراد تجاه بعضهم البعض، أو ما ينعكس على وجدانهم من صروف الدهر، ومجريات الأحداث، والكاتب فيها حر طليق في التعبير عن مشاعره، لا تحده حدود الديوان، ولا تأسره الحياة السياسية بموضوعاتها الرسمية".[2]

وبعيداً عن السياسة وصروفها، جاءت الرسالة الهزلية محملة بالمشاعر المتضاربة، وقد بدت تلك المشاعر واضحة، رغم أن ابن زيدون قد حرص على إضمارها داخل المعنى الظاهر المصوغ بطريقة ساخرة.

فقد أنشأ ابن زيدون رسالته الهزلية بدافع الحب لمحبوبته "ولادة بنت المستكفي" وبدافع البغض لمنافسه في غرامها الوزير "ابن عبدوس" لتكون رداً على لسان ولادة للوزير ابن عبدوس الذي أرسل لها امرأة تستميل قلبها إليه،وتعدد لها مناقبه،وترغبها في وصله،فكانت هذه الرسالة جواباً له على لسان ولادة،وقد أرسلها ابن زيدون عقب رجوع المرأة،فبلغت من ابن عبدوس كل مبلغ، لما اشتملت عليه من غرائب السب والتهكم والهجاء،فأمسك ابن عبدوس عن التعرض لولادة،إلى أن انتقل ابن زيدون إلى إشبيلية ومات بها[3].

جاءت الرسالة الهزلية -كما يقول أحد دارسيها- "نفثة مصدور ومرآة شاعر موتور"[4] وقد استطاع ابن زيدون بما ضمّنه رسالته من عواطف قوية عنيفة،أن يثير في السامع والقارئ عواطف مماثلة تدعو إلى المشاركة الوجدانية،وبما اشتملت عليه الرسالة من ثقافة واسعة،واطلاع شامل على المعارف والفنون والعلوم الشائعة جميعها في عصر المؤلف،وبما فيها أيضاً من خيال خصب استطاع أن يضم حوادث متفرقة وألواناً متباينة،استطاعت أن تنجح في بلوغ هدفها المنشود، فقد انقطع ابن عبدوس عن زيارة ولادة عدة سنوات،حتى خلا له الجو

1- ابن نباتة، سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، مطبعة المدني، القاهرة، 1964م، ص14.

2 -نبيل خالد رباح، نقد النثر في تراث العرب النقدي حتى نهاية العصر العباسي 656هـ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993م، ص275.

3- ابن نباتة، سرح العيون، ص24.

4- أدي ولد آدب، الرسالة الهزلية: قراءة في الوجه الآخر لابن زيدون، المجلة العلمية المحكمة في الدراسات العربية والإسلامية بالأندلس، ع 16، 2009م، ص234.

بعد أن هجر ابن زيدون قرطبة،فعاد لتجديد ما بينهما من صلات[1].

إن دافع هجاء ابن عبدوس كان غرضاً واضحاً في الرسالة الهزلية،إلا أن دافع الإقناع كان يشكل حاجة لابن زيدون يسعى للوصول إليها،فهو يريد أولاً: أن يقنع ولادة في البعد عن ابن عبدوس،وعدم تقبله،وأن يجعلها من خلال هجائه تراه بصورة مزرية تولّد في نفسها البغض له،وثانياً: أن يقنع القارئ بما يقول،وبما أنه استطاع من خلال رسالته الهزلية بلوغ هدفه المنشود،فقد جاء التساؤل عن الإستراتيجية الخطابية التي اتبعها ابن زيدون في رسالته الهزلية،واستطاع من خلالها تحقيق هدفه.

تصنف إستراتيجيات الخطاب وفق ثلاثة معايير واضحة،أولها معيار العلاقات التخاطبية الذي ينتج عنه الإستراتيجية التضامنية،والإستراتيجية التوجيهية،وثانيها معيار دلالة الشكل اللغوي،وينتج عنه الإستراتيجية التلميحية،وأما المعيار الثالث،فهو معيار الهدف من الخطاب،حيث يعد الهدف الإقناعي من أهم الأهداف التي يسعى الإنسان إلى تحقيقها،وبذلك يمكن أن نصنف إستراتيجية الإقناع ضمن معيار الهدف من الخطاب[2].

وقد وجدت أن إستراتيجية الإقناع كانت من أكثر الإستراتيجيات حضوراً وتوظيفاً في الرسالة الهزلية،حيث الآليات والوسائل والتقنيات التي اعتمدها ابن زيدون للوصول إلى تلك الدرجة من القبول لدى المتلقي ومن ثم إقناعه بما يقول،فقد سعى ابن زيدون في رسالته الهزلية إلى النهوض بمعيار الهدف من الخطاب من خلال اتباعه لإستراتيجية الإقناع المدعمة بعدد من الآليات التي تضمن له تحقيق مآربه.

إن الإقناع يمثل وجهاً من وجوه الحجاج، بل إن إستراتيجية الحجاج هي الإقناع،التي يعتمدها المتكلم،وتكون هدفه الأساس للوصول إلى مساحة كبيرة من القبول لدى المتلقي،وفي سبيل ذلك تأتي الوسائل والتقنيات التي تقع تحت إستراتيجية الإقناع ساعية للوصول إلى هدف الإقناع،كالوسائل اللسانية التي تعنى بالاتساق والترابط والانسجام،والوسائل الأصولية والفلسفية،والوسائل البلاغية،[3]والوسائل الأسلوبية،وغير ذلك.

وبعد الوقوف طويلاً على الرسالة الهزلية والتأمل فيها شكلاً ومضموناً،وجدت أن إستراتيجية الإقناع قد تمثلت في جانبين ظاهرين،وهما: السخرية،وروافد النص وفيما يأتي

---

[1]- ابن زيدون، أبو الوليد أحمد، ديوان ابن زيدون ورسائله، شرح وتحقيق: علي عبد العظيم، دار نهضة مصر، د.ت، ص89.

[2]- عبد الهادي الشهري، إستراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004م، ص vii-viii.

[3]-عباس حشاني، مصطلح الحجاج بواعثة وتقنياته، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة بسكرة، الجزائر، 2013م، ص280-282.

سنقف على كل جانب منهما بالتفصيل والتمثيل:

أولاً: السخرية

السخرية في اللغة كما ورد في لسان العرب هي الاستهزاء والضحك من...[1]. أما في الاصطلاح فهي "طريقة في الكلام يعبر بها الشخص عن عكس ما يقصده بالفعل"[2].

وفي تعريف آخر "منهج جدلي يعتمد على الاستفهام،بمفهومه البلاغي،إذ تعتبر طريقة في توليد الثنائية،والتعليم على البعد المعرفي"[3].

فهي في ظاهرها وسيلة تعتمد على قلب المعنى بغية الإضحاك،لكنها في بعدها الأعمق تعد إستراتيجية خطابية حجاجية وأسلوبية، تتوخى الإضحاك والإقناع معاً،بل إنها تشكل أحد أهم أقنعة المحتمل في الخطاب الأدبي[4]،حيث يتجلى الإقناع في السخرية من خلال الخطاب الساخر الذي يستهدف إفحام من اعتبر النقيض عين الحقيقة أكثر من استهدافه التعبير عن تلك الحقيقة بوساطة ما يناقضها،وهذا في حدِّ ذاته يجعل لها قيمة حجاجية تمكنها من الوصول إلى أقصى درجات الإقناع عند القارئ.

إن السخرية هي الآلية الأولى التي سخرها ابن زيدون في رسالته الهزلية،فقد كانت القالب الذي أفرغ فيه أفكاره في هجائه لغريمه،مدعمة بكثير من الوسائل الفنية والأسلوبية التي تجعل من مضمونها أكثر إقناعاً،فقد جاءت الرسالة بسمتها العامة رسالة ساخرة،ليضمن كاتبها منذ البداية مشاركة القارئ له بالضحك من شخصية ابن عبدوس،حين ينفي عنه كل ميزة يمكن أن يعتقدها فيه من يعرفه،حتى لتبدو صورته القبيحة وكأنها بديهية في نظر القارئ.

تبدأ الرسالة بتوجيه الخطاب من ولادة لابن عبدوس،وقد وسمته بالجنون والجهل والرداءة وسقط القول والغرور والطيش: "أما بعد،أيها المصاب بعقله،المورط بجهله،البين سقطه،الفاحش غلطه،العاثر في ذيل اغتراره،الأعمى عن شمس نهاره الساقط سقوط الذباب على الشراب،المتهافت تهافت الفراش إلى الشهاب..."[5].

ويظهر من هذا الاستهلال أن ابن زيدون قد استغنى فيها عن المقدمات المعهودة من

---

[1]-ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب، ط3، دار صادر، بيروت، 1414هـ، مادة سخر.

[2]-مجدي وهبة، وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ط 2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984م، ص198.

[3]- سعيد علوش ، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، (عرض وتقديم وترجمة)، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، سوشبريس، الدار البيضاء، 1985م، ص110.

[4]-عبد النبي ذاكر، العين الساخرة: أقنعتها وقناعاتها في الرحلة العربية، منشورات المركز المغربي للتوثيق والبحث في أدب الرحلة، مارس، 2000م، ص9.

[5]-ابن زيدون، ديوان ابن زيدون، 634-635.

بسملة وحمد، وصلاة على النبي،أو غير ذلك مما اعتاده الكتاب في عصره،واكتفى بتصديرها بعبارة "أما بعد" ولا أظن ذلك إلا من باب القصد والاستعجال في تحقير ابن عبدوس وسبه مباشرة،ولإحداث شيء من الدهشة عند القارئ،الذي يعرف شخص ابن عبدوس المعروف بمكانته الاجتماعية والسياسية والأدبية آنذاك.

ثم إن استغناء ابن زيدون عن المقدمات المعهودة في الرسالة جاء ليؤكد تصريحه المباشر بالمستوى الباطني للسخرية وعدم اكتفائه بالمستوى الظاهري الذي يخفي خلفه الغاية من غياب المقدمة،فكأنه بهذه البداية "يقول ضمنياً إن الموضوع الهازل ليس ذي بال حتى يبسمل قبله".[1]

إن إستراتيجية الإقناع تبدو حاضرة منذ بداية الرسالة الهزلية،فبعد التصريح بالمستوى الباطني للسخرية،الذي يفسره غياب المقدمة،يحاول ابن زيدون،وبأسلوب ساخر أيضاً تقديم سبب منطقي مقنع لقبول المرأة لطلب ابن عبدوس في الذهاب إلى ولادة بغرض مدحه،واستمالة قلبها إليه،مع أن تلك المرأة خليلته،وقبولها لطلب كهذا دليل على أنها قد أبغضته وملته،وإلا لكانت منعتها غيرتها عليه من القيام بذلك: "مرسلا خليلتك مرتادة،مستعملاً عشيقتك قوادة... ولا شك أنها قلتك إذ لم تضن بك،وملتك إذ لم تغر عليك"[2].

ثم ينتقل ابن زيدون بعد ذلك إلى سلسلة طويلة من التصويرات الحسية والأخلاقية لابن عبدوس،والتي استقى منها مادته الساخرة،فجاءت تصويراته حاملة لجل المتناقضات المبالغ فيها،وهو بذلك يهدف إلى خلق صورة منتقصة لغريمه،في جوانبه الحسية والأخلاقية،حتى دفعه ذلك لأن يأتي بكل صورة فريدة،ليجعل من صورة ابن عبدوس مناقضة لها،مستغلاً تلك المفارقات العجيبة بين الحقيقة والادعاء المزعوم.

فقد صوره مدعياً بأن له من الجمال ما يفوق جمال سيدنا يوسف: "قاطعة أنك انفردت بالجمال،واستأثرت بالكمال،واستعليت في مراتب الجلال،واستوليت على محاسن الخلال،حتى خيلت أن يوسف –عليه السلام- حاسنك فغضضت منه،وان امرأة العزيز رأتك فسلت عنه"[3].

وأن له من المال ما يفوق مال قارون،وما حصله النطف: "وأن قارون أصاب ما

1-أدي ولد آدب، قراءة في الوجه الآخر، ص236.
2-ابن زيدون، ديوان ابن زيدون، ص636.
3- المصدر نفسه ، ص637.

كنزت،والنطف عثر على فضل ما ركزت"[1].

وأن لـه مـن الملـك والجـاه مـا يجعـل كسـرى يحمـل لـه مظلته،وقيصـر يرعى ماشـيته: ""وكسرى حمل غاشيتك،وقيصر رعى ماشيتك"[2].

وأن الإسـكندر وأردشـير يقـاتلون مـن أجلـه: "والإسـكندر قتـل دارا في طاعتك وأردشـير جاهد ملوك الطوائف لخروجهم عن جماعتك"[3].

وأن الضـحاك وجذيمـة يطلبـون رضـاه ومنادمتـه: "والضـحاك اسـتدعى مسـالمتك وجذيمة الأبرش تمنى منادمتك"[4].

وأن شـيرين وبـوران –وهمـا مـن أجمل النسـاء- قـد تنافسـن عليه،وكذلك حـال بلقـيس والزباء: "وأن شيرين قد نافست بوران فيك،وبلقيس غايرت الزباء عليك"[5]

وغيرهـا الكثير مـن الصـور التي تمتـد على طـول الرسـالة،وهو إذ يسـوق تلـك الصـور قاصـداً نقيضـها لابـن عبـدوس،من خـلال صـياغتها بقالـب مـن السـخرية اللاذعـة متخـذاً مـن المبالغة في التصوير طريقه للتعبير الساخر.

وقـد بـدت السـخرية واضحة جلية،حين كان ابـن زيـدون يعمـد لاختيـار المثال الأنمـوذج في التصـوير،ليجعل مـن ادعـاء ابـن عبـدوس مثيرا للضحك والسـخرية،من شخصـية تـدعي لنفسـهاماهو أعلى مـن النموذج،وبطريقـة غير مباشـرة تبـدو صـورة النقـيض لشخصـية ابـن عبدوس،وقد جرّدها ابن زيدون من كل صفة حسية وأخلاقية جيدة.

إن ابـن زيـدون اعتمـد بشـكل أساسـي على بلاغـة التصـوير في رسـالته الهزليـة، ليمـنح طريقته الساخرة قدرة على الإقناع والتأثير في المتلقي،لأن الخطاب الساخر أو التفكهي قد يفقد شـيئاً مـن فصـاحته وجزالتـه لـو جـاء بـنمط عـار مـن البلاغـة،إلا أن ابـن زيـدون قـد اسـتطاع بمـا يملكه من وسـائل أدبيـة خاصـة أن ينسـج بلاغـة عاليـة بقالـب من السـخرية،يهدف من خلالـه إلى إثارة الضحك من جهة،وإلى الإقناع والتأثير من جهة أخرى.

لقـد منحـت السـخرية لابـن زيـدون فرصـة الـتخلص مـن الانفعـال والتـوتر إزاء حديثـه عـن قضـية تمـس حياتـه العاطفيـة ومـا اشـتعل فيهـا مـن نيران الغيرة من شخص بـدأ يحتل مكانـه مـن قلـب ولادة، فلربمـا كـان انفعالـه وتـوتره سـبباً في بيـان ضـعفه وقهـره أمـام غريمـه،لـو جـاء

1- المصدر نفسه، ص637.
2-المصدر نفسه، ص637.
3- المصدر نفسه ، ص638.
4-المصدر نفسه، ص638.
5-المصدر نفسه، ص638-639

بأسلوب غير أسلوب السخرية التي قصد إليها ابن زيدون،"فالتخلص من الانفعالية هو ما يولد احتمالية الخطاب الساخر،ويرفع الفرد فوق نفسه وفوق الآخرين"[1]،فجاء حديثه وكأنه يخاطب العقل، وغير منبعث من عاطفة أصلاً،فالسخرية تبدو "وكأنها لا تنبعث عن عاطفة ما عند قائلها،لأنها تخاطب العقل،وتسعى إلى أن يكون الجو مشبعاً بالإدراك والوعي"[2]،وما مخاطبة العقل إلا محاولة جادة للإقناع والتأثير في المتلقي.

وبالإضافة لما منحته السخرية لابن زيدون من فرصة الاقتصاص من غريمه وتسفيهه،فهي أيضاً ساهمت في إظهار فضله عليه،فالسخرية من الإستراتيجيات التي تساهم في "إظهار فضل "النحن" على الغير،وفي هذا ما يحقق للذات امتلاء أونطولوجياً تحتمي به من الوقوع في شرك الدهشة والغرائبية"[3]،فقد استطاع ابن زيدون من خلال السخرية أن يهجو غريمه،وفي الوقت ذاته،يُظهر فضله عليه،دون أن يكون لذلك إشارة مباشرة، ليكون بذلك أكثر إقناعاً للقارئ،وقد عزز ابن زيدون سعيه للإقناع في هذه النقطة تحديداً،من خلال روافد نص الرسالة الهزلية المتعددة،والتي سيأتي الحديث عنها تالياً.

ثانياً: روافد النص

مما يميّز الرسالة الهزلية هو كثرة روافدها الثقافية،التي تدل على معرفة موسوعية فذة لكاتبها،فقد عمل ابن زيدون على توظيف حقول معرفية شتى،تجمع التاريخ والفلسفة والمنطق والطب وعلوم اللغة والأدب والأمثال،وحتى علوم الفقه والحديث،وذلك من خلال ذكره لأسماء الأعلام الذين ينتمون لتلك العلوم،وبعض الإشارات التي تفيد بها،وذلك كله في إطار سخريته من ابن عبدوس.

ولأن هدف ابن زيدون الأساس من رسالته الهزلية هو الإقناع لولادة وللقارئ فقد جاءت روافد النص داعمة لإستراتيجية الإقناع في جانبين:

أما الجانب الأول،فيتعلق بسعيه لإقناع ولادة بازدراء ابن عبدوس وهجره،وأن يجعلها تلتفت له بدلاً من منافسه في حبها،فهو من خلال تلك الروافد الثقافية استطاع أن يبرز شخصيته الموسوعية،ويثبت معرفته الواسعة بشتى العلوم،ومن جانب آخر ينفي عن ابن عبدوس كل تلك المعارف، ويجعله بعيداً عنها كل البعد،حين يعرضه بصورة المدعي للمعرفة،المتعالي فيها حتى على أصحاب تلك العلوم ومخترعيها،متنقلاً بين أخبار التاريخ والوقائع،إلى علوم الفلسفة والمنطق،وعلوم الفلك،والطب،وأمور القضاء وعلوم

[1]- عبد الني ذاكر، العين الساخرة، ص16
[2]- المرجع نفسه ، ص16.
[3]- المرجع نفسه ، ص41.

والكيمياء،واللغة والأدب،والفقه،والحديث الشريف،وغيرها من العلوم والمعارف :

" ... وأن الحجّاج تقلد ولاية العراق بجدك،وقتيبة فتح ما وراء النهر بسعدك،والمهلب أوهن شوكة الأزارقة بأيدك،وفرق ذات بينهم بكيدك،وأن هرمس أعطى بلينوس ما أخذ منك،وأفلاطون أورد على أرسطاطاليس ما نقل عنك،وبطليموس سوّى الأصطرلاب بتدبيرك،وصور الكرة على تقديرك،وأبقراط علِم العلل والأمراض بلطف حسك وجالينوس عرف طبائع الحشائش بدقة حدسك،وكلاهما قلدك في العلاج، وسألك عن المزاج،واستوصفك تركيب الأعضاء،واستشارك في الداء والدواء،وأنك نهجت لأبي معشر طريق القضاء،وأظهرت جابر بن حيان على سر الكيمياء،وأعطيت النظّام أصلاً أدرك به الحقائق... وعمرو بن بحر مستمليك،ومالك بن أنس مستفتيك،وأنك الذي أقام البراهين،ووضع القوانين...وفصل بين الاسم والمسمى... وصنف الأسماء والأفعال،وبوّب الظرف والحال،وبنى وأعرب،ونفى وتعجب... وأهمل وقيد،وأرسل وأسند..."[1].

إن رغبة ابن زيدون في الإقناع فجرت لديه كماً كبيراً من المعارف،التي جعلت من النص فضاء معرفيا واسعاً،فهو لا يكاد يترك علماً إلا وجاء على ذكره،وأبدى معرفته واطلاعه على أصحابه،وأشار إلى بعض تفصيلاته،نافياً عن ابن عبدوس تلك المعرفة،بأسلوب ساخر،ليلفت بذلك إلى الفرق بين من يجمع كل تلك المعارف،وبين من يصوره مدعيا لها.

ومما ساهم في تحقيق إستراتيجية الإقناع بشكل أكبر هو تقمصه لشخصية ولادة،لإيصال رسالته لابن عبدوس وفي الوقت نفسه لولادة،فهذا جعله يبتعد عن خطاب الأنا المباشر الذي قد يفسد عليه فرصة الإقناع للمتلقي،فقد استطاع بأسلوبه هذا،وبتوظيفه لهذا الكم الهائل من الروافد الثقافية أن يتفاخر بمعارفه ويتباهى بها دون أن يشير إلى نفسه ولو إشارة بسيطة بأسلوب مباشر.

بل إن ذكاء ابن زيدون جعله يشير إلى ولادة لأن تفطن وتتنبه لهذا المخزون الثقافي الهائل الذي أودعه رسالته،حين قال على لسانها مخاطباً ابن عبدوس: "أين ادعاؤك رواية الأشعار؟ وتعاطيك حفظ السير والأخبار؟"[2] فقد جعل من رواية الأشعار وحفظ السير والأخبار عند غريمه مجرد ادعاء، بينما استطاع أن يثبت ذلك لنفسه.

وأما الجانب الثاني،فيتعلق بسعيه لإقناع القارئ،الذي غالباً ما يجد في نص كهذا،سلطة تفرضها بلاغة الإقناع الكامنة في وقع تلك الأسماء والإشارات الثقافية،والتي غالباً ما ترتبط بمعرفة يقينية سابقة لدى المتلقي،تجعله يؤمن تماماً بما سيرد في النص من

[1]-ابن زيدون، ديوان ابن زيدون، ص645-650.
[2]- المصدر نفسه ، ص663-664.

مضامين،فورود الأمثال والأشعار،وأسماء الشخصيات التاريخية العلمية أو الثقافيّة،أو غير ذلك،يمارس أثراً كبيراً على المتلقي لإقناعه.

فقد عمد ابن زيدون في غير موضع إلى الاستشهاد بكثير من الأمثال العربية التي تشكل مرجعية ثقافية لدى المتلقي،ويسهل عليه التواصل معها،فتكون بذلك أكثر تأثيراً وإقناعاً،ومن ذلك قوله: "وأنك المقول فيه: "كل الصيد في جوف الفرا"[1].وقوله حين يصف المرأة التي أرسلها ابن عبدوس بقوله: "فكدمت في غير مكدم،واستسمنت ذا ورم ونفخت في غير ضرم،ولم تجد لرمح مهزاً،ولا لشفرة محزاً،بل رضيت من الغنيمة بالإياب،وتمنت الرجوع بخفي حنين"[2]،وحتى عندما يبرر خيبة أمل المرأة المرسلة فإنه يقول على لسان ولادة: "لأني قلت: "لقد هان من بالت عليه الثعالب"[3].

ومن شديد سخريته من ابن عبدوس، نجده يوظف المثل القائل: "فالمعيدي اسمع به خير من أن تراه"[4]، ليكون هذا المثل مفتاحاً لما يسوق بعده من أوصاف لابن عبدوس: "هجين القذال،أرعن السبال،طويل العنق والعلاوة،مفرط الحمق والغباوة جافي الطبع،سيء الجابة والسمع،بغيض الهيئة،سخيف الذهاب والجيئة،ظاهر الوسواس،منتن الأنفاس،كثير المعايب،مشهور المثال..."[5]

وفي موضع آخر نجده يستحضر كماً من الأمثال على لسان ولادة،لتكون بما تحمله من معان رداً كافياً لابن عبدوس على طلبه وصال ولادة،فقد جعل ابن زيدون قبول ولادة لوصال ابن عبدوس عاراً ودنية لا ترضاها،فتقول: "فالنار ولا العار،والمنية ولا الدنية،والحرة تجوع ولا تأكل بثديها"[6]،وغيرها كثير من الأمثال.

ومن المعروف أن المثل بحد ذاته هو " حجة تقوم على المشابهة بين حالتين في مقدمتها،ويراد استنتاج نهاية إحديهما بالنظر إلى نهاية مماثلتها"[7]،بل إنه يعد دعامة كبرى من دعائم الخطابة لما يحقق من إقناع وتأثير[8].

وقد تنبه علماء البلاغة القدماء إلى أهمية المثل في الإقناع،ومن ذلك قول ابن وهب:

1- المصدر نفسه ، ص651.
2- المصدر نفسه، ص653.
3- المصدر نفسه، ص653-654.
4- المصدر نفسه ، ص 657.
5- المصدر نفسه، ص658.
6- المصدر نفسه، ص666.
7- محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، الخطابة في القرن الأول نموذجاً، ط2، أفريقيا الشرق، المغرب-لبنان، ص82.
8- المرجع نفسه، ص85.

"وأما الأمثال،فإن الحكماء والعلماء والأدباء لم يزالوا يضربون ويبينون للناس تصرف الأحوال بالنظائر والأشكال،ويرون هذا النوع من القول أنجع مطلباً وأقرب مذهباً... وإنما فعلت العلماء ذلك لأن الخبر في نفسه إذا كان ممكناً فهو محتاج إلى ما يدل على صحته،والمثل مقرون بالحجة"[1].

وقد استطاع ابن زيدون من خلال استحضاره لهذا الكم من الأمثال في رسالته أن يدعم إستراتيجية الإقناع من جهتين،الأولى في محاولة إقناع ولادة من خلال التباهي بهذا المخزون الأدبي التراثي،وطريقة توظيفه في الرسالة،والثانية في محاولة إقناع القارئ الذي يجد في المثل حجة ينساق وراءها، وينشغل بدلالتها على الحالة الجديدة المشابهة لحالة سابقة، تم المصادقة عليها ولم تعد تقبل الجدل.

أما استشهاده بالأبيات الشعرية،فقد كان أيضاً وسيلة قوية من وسائل الإقناع،اتكأ عليها ليحقق الإقناع من جانبين،أولهما البيت الشعري نفسه،وما يدل عليه من معنى بأسلوب أدبي بليغ، وثانيهما الحضور الثقافي المؤثر لقائل البيت.

فحين يقول: "والمعنيّ في قول أبي تمام:

فلو صورت نفسك لم تزدها عليّ ما فيك من كرم الطباع

والمراد بقول أبي الطيب:

ذكر الأنام لنا فكان قصيدة كنت البديع الفرد من أبياتها"[2]

ومن الملاحظ أن ابن زيدون أكثر من الاستشهاد بأبيات الهجاء،لمناسبتها لهذا المقام، وقد ختم رسالته ببيت للمتنبي في هجاء كافور:

"فمن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى"[3]

إن حضور شخصيات ثقافية كالمتنبي وأبي تمام في نص الرسالة الهزلية هو حضور مؤثر بلاغياً ودلالياً،فبالإضافة لما يشتمل عليه البيت المستشهد به من بلاغة ومضمون،فهو أيضاً يرتبط بشخصية الشاعر التي لها ارتباط وثيق بالإرث الثقافي العربي،وبذلك يمثل حضور البيت الشعري وقائله سلطة على القارئ ترتبط بالإقناع بالإضافة لما قد يشتمل عليه البيت الشعري المستشهد به من آليات إقناع كامنة فيه.

1- ابن وهب، أبي الحسين إسحاق بن إبراهيم، البرهان في وجوه البيان، تقديم وتحقيق: حنفي محمد شرف، مطبعة الرسالة، مصر، 1969م، ص 117-118.
2- ابن زيدون، ديوان ابن زيدون، ص651-652.
3- المصدر نفسه . ص 679.

إن مثل هذه المعارف بالنسبة للمتلقي هي مسلمات لا تقبل الجدل،ولا يملك المتلقي إلا الصمت والاقتناع إزاءها،فحين يستدعي ابن زيدون أسماء الشخصيات التاريخية والدينية والثقافية ويستشهد بالأمثال المعروفة والأبيات الشعرية المشهورة فإنه بذلك يفرض على المتلقي سلطة القبول،والاقتناع أمام أنساق متعددة لا تقبل الجدل.

لكننا مع ذلك نشير إلى أن كثرة روافد نص الرسالة الهزلية،-وأقول كثرتها- قد تشكل نقطة ضعف في مجال الإقناع لا قوة،فهي وإن شكلت جزءاً من آليات الإقناع،إلا أنها على الأقل مستدعاة من خارج نتاج ابن زيدون،وقد أشار جودت الركابي إلى قلة إنشاء ابن زيدون في رسالتيه الهزلية والجدية بقوله:

"ويبدو إنشاؤه فيهما قليلا ضئيلا،إذا ما قيس بما يذكره من أمثال العرب، وأسماء رجال التاريخ،والوقائع الشهيرة"[1].

خاتمة:

سعى هذا البحث إلى الكشف عن قوة التأثير الكامنة في الرسالة الهزلية،ومحاولة تحديد الإستراتيجية الخطابية المتبعة فيها،فكانت إستراتيجية الإقناع حاضرة بقوة،مما دعا إلى الكشف عن وسائل الإقناع وآلياته في النص،وتم التوصل إلى عدد من النتائج،من أهمها:

- إن وسائل الإقناع والتأثير في الرسالة الهزلية قد تجلت في جانبين،أولهما: السخرية،وهي القالب الذي أفرغ فيه ابن زيدون مضمون رسالته،وثانيهما: روافد النص التي عملت في غير جانب على الإقناع والتأثير.
- إن ابن زيدون اعتمد بشكل أساسي على بلاغة التصوير في رسالته الهزلية ليمنح طريقته الساخرة قدرة على الإقناع والتأثير في المتلقي.
- لقد منحت السخرية لابن زيدون فرصة التخلص من الانفعال والتوتر إزاء حديثه عن قضية تمس حياته العاطفية،وربما كان انفعاله وتوتره سبباً في بيان ضعفه وقهره أمام غريمه،لو جاء بأسلوب آخر غير أسلوب السخرية.
- إن رغبة ابن زيدون في الإقناع فجرت لديه كماً كبيراً من المعارف،التي جعلت من النص فضاء معرفيا واسعاً،فهو لا يكاد يترك علماً إلا وجاء على ذكره،وأبدى معرفته بأصحابه،ومعرفته ببعض تفصيلاته.
- عمد ابن زيدون في غير موضع إلى الاستشهاد بكثير من الأمثال العربية التي تشكل

[1]- جودت الركابي، في الأدب الأندلسي، ط3، دار المعارف، مصر، ص191.

مرجعية ثقافية لدى المتلقي،ويسهل عليه التواصل معها، فيكون بذلك أكثر تأثيراً وإقناعاً.

- إن استشهاد ابن زيدون بالأبيات الشعرية،شكّل وسيلة قوية من وسائل الإقناع، وذلك في جانبين،أولهما البيت الشعري نفسه،وما يدل عليه من معنى بأسلوب أدبي بليغ،وثانيهما الحضور الثقافي المؤثر لقائل البيت.

وختاما،لا بد من القول إن هذه الرسالة ما زال فيها كثير من الجوانب التي تستحق الدراسة للكشف عن مكنوناتها، وهذا ما يميز الأعمال الأدبية الإبداعية؛ فهي لا تكتفي بقراءة واحدة.

المصادروالمراجع

- أدي ولد آدب، الرسالة الهزلية: قراءة في الوجه الآخر لابن زيدون، المجلة العلمية المحكمة في الدراسات العربية والإسلامية بالأندلس، ع 16، 2009م.
- جودت الركابي، في الأدب الأندلسي، ط3، دار المعارف، مصر، 1970م.
- ابن زيدون، أبو الوليد أحمد، ديوان ابن زيدون ورسائله، شرح وتحقيق: علي عبد العظيم، دار نهضة مصر، د.ت.
- سعيد علوش ،معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، (عرض وتقديم وترجمة)، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، سوشبريس، الدار البيضاء، 1985م.
- عباس حشاني، مصطلح الحجاج بواعثة وتقنياته، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة بسكرة، الجزائر، 2013م.
- عبد النبي ذاكر، العين الساخرة: أقنعتها وقناعاتها في الرحلة العربية، منشورات المركز المغربي للتوثيق والبحث في أدب الرحلة، مارس، 2000م.
- عبد الهادي الشهري، إستراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004م.
- مجدي وهبة، وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ط 2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984م.
- محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، الخطابة في القرن الأول نموذجاً، ط2، أفريقيا الشرق، المغرب-لبنان، 2002م.
- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب، ط3، دار صادر، بيروت، 1414هـ.
- ابن نباتة، سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم،

دار الفكر العربي، مطبعة المدني، القاهرة، 1964م.

- نبيل خالد رباح، نقد النثر في تراث العرب النقدي حتى نهاية العصر العباسي 656هـ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993م.

- ابن وهب، أبي الحسين إسحاق بن إبراهيم، البرهان في وجوه البيان، تقديم وتحقيق: حنفي محمد شرف، مطبعة الرسالة، مصر، 1969م